أسس الزواج الناجح

نظيمة عبد الرحمن أحمد



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : أسس الزواج الناجح

المـــــــؤلف : نظيمة عبد الرحمن أحمد

رقــم الإيداع :

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

الطبعة الأولى ٢٠١٣

المقدمة

قال رسول الله :« **الدين النصيحة** »، وقال الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز:« **رحم امرئ أهدانى عيوبى** »، وفى ذلك ما فيه من الجمال والصدق؛ حيث جعل إيضاح العيوب هدية يستحق من يهديها الشكر والدعاء له؛ لذا أهدى هذه الأنات التى هى فى رأيى عيوب فكرية تحيد بمعتنقها عن درب الحق إلى كل من تلمس فيه وتراً معيباً حوَّل لحن حياته، بل وحياة من يقاسمونه الدرب إلى نشاذ آملة أن يعيد قراءته عله يعزف به بعد ذلك أنشودة الحياة السعيدة.

وسبيلى فى ذلك الصدق، صدق الإحساس بهذه الأنات حيث تعايشت مع بعضها بنفسى، والبعض الآخر مع من أشعر دوماً أنهم جزء من نفسى متمنية لو أن إحساسى الفكرى هذا وصل لأكبر عدد ممن يتجاهلون لغة المشاعر، وسواء اختلفنا أو اتفقنا يكفى القارىء منى صدق الكلمة، وشرف الغاية، ويكفينى منه قراءتها بعيون قلبه وعرضها على أفكار عقله؛ فإن قبلها تقاسمنا الدرب.



ما الزواج ؟!!

قد يبدو السؤال في بدايته غريباً، حيث أن الزواج شىء متفق على تعريفه شرعاً وقانوناً وعرفاً.

فالشـرع جعله الرباط المقدس الذى يربط بين الرجل والمرأة، وبه تستمر الحياة.

والقانون جعله مؤسسة بين طرفين لكل منهما حقوق وواجبات.

والعـرف حده بعادات وتقاليد متوارثة لا يمكن الخروج عنهـا.

وكل هذه التعريفات رغم صحتها لم تعطنى تعريفاً جامعاً مانعاً لمعنى الزواج والحكمة منه وأسس استمراره أو فشله فهناك الملايين ممن ينطبق عليهم الزواج بتعريفه الصحيح شرعاً وقانوناً وعرفاً، ولكنهم غير أصحاء، وربما استمروا فيه معلولين أو نهوه لتلك العلة، والحالتين لا تفرق عندى كثيراً ، ولكنى أبحث عن السبب، وأعتقد أننا لو فهمنا المعنى الصحيح للزواج لاستطعنا على الأقل الإبقاء عليه أو الشعور بهذا الرباط الذى يصعب العتق منه، وهنا ذهبت أتأمل هل المعنى الحقيقي ينطبق عندما تنطبق جميع الشروط التى أمر بها الشرع من (ولاية وتكافؤ وقبول .. وغيره)؟، فوجدت أن هناك كثير ممن انطبقت عليهم هذه الشروط فشلوا، إذن سر نجاحه ليس فى ذلك .

قد يكون فى تحكيم العقل حتى يكون هو بداية ونهاية هذا المشروع؟، أيضاً هناك الكثير ممن أخذوه بهذه الصورة العقلانية المجردة وفشلوا، قد يكون فى الحب؟ الحياة تصدمنا بالعديد والعديد ممن أحبوا حتى النخاع وذهب ذلك كله فى مهب الريح بعد فترة قصيرة من الزواج، إذن سر النجاح ليس فى كل من ذلك على حده، إنه ربما يكون فى الجمع بين كل هذه الأشياء، وهذا قد يبدو مستحيلاً، فمن منا يجمع فى زواجه بين العقل المحض والعاطفة الخالصة فى نطاق الأعراف السائدة؟!!

ووجدتنى أمام كل هذا عاجزة أتأمل الزواج فى صوره العديدة المترائية لى المركبة منها والبسيطة ، الناجحة منها والفاشلة، باحثة عن السر، إلى أن أشرق بداخلى نور وكأنه السحر الذى لا نراه رغم ترديده على ألسنتنا فى معظم الزيجات وهى قوله سبحانه وتعـالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ وهنا توهمت أننى وجدت الحقيقة التى لا يشوبها شك إلا أننى سرعان ما توقفت أمام معناها لأتساءل عنه.

فهى الحق الذى لا يشوبه باطل والصدق الذى لا يخالطه كذب، وأنا أعتقد فى ذلك ولكن الشك عندى فى مدى إدراكنا لمعناها، هل منا من يعى معنى السكن والمودة والرحمة بحق؟.

إنها دستور كامل لحياة زوجية أبدية لو استطعنا فهمه وتطبيقه لكان ذلك الزواج جنة الله على أرضه، ففيها الإنسان بكل ما يحتويه من عاطفة وعقل حيث أنه سبحانه وضع بها الحكمة وسبل استمرارها، فالحكمة من الزواج اتضحت فى قوله جل وعلا: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ ، وهل هناك حب مهما علت درجته يصل لمرتبة أعلى من السكن؟!!

فالسكن أمن وأمان وراحة وانتماء وتسليم للنفس برضا وهدوء دون أدنى شعور بذلك التسليم، بل هو الملجأ فى الراحة والتعب، وفى سبيل الحفاظ عليه يضحى الإنسان بنفسه حتى أننا نرى موت أفراد وجماعات دفاعاً عن سكنهم، ولا نعجب فهذا أمر طبيعى، فالسكن والإنسان وجهان لعملة واحدة إذا فقدت واحداً منهما لا يمكن التعامل بالآخر.

ورغم أننى وجدت الحكمة من الزواج فى هذه الكلمة التى أعطتنى التعريف الجامع المانع له، إلا أن رحمة الله بنا لم تتوقف عند هذا الحد، بل أعطتنا الوسيلة للحفاظ على ذلك المعنى وكان ذلك فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ ، وهنا ودون اللجوء للمعاجم اللغوية لتفسير معنى المودة الدقيق، أحسست أنها ما نسميه الحب، ولنتأمل موقعها من الآية، إنها لم تأت إلا بعد السكن ، والسبب أحسسته جلياً أمامي؛ فالسكن لابد وأن يولد حباً فإذا كان الأول كان الثاني، ولا شك فالسكن بمعناه الحقيقى أعمق وأصدق من كل المشاعر التي قد نسميها عشقاً، غراماً، هياماً، ولهاً وغيره، ولكن سرعان ما ذهبت فى فيض من الحزن بعد السرور والشك بعد اليقين، فإذا كان السكن يولد حباً ولا شك، ما الذى يحدث إذا لم يشعر الإنسان بالسكن؟ وهل يمكن أن تكون هناك مودة بدون سكن؟ وإن كان يصعب ذلك فما الذى يمكن أن يحدث؟.

وفجأة أيضاً أشرق بداخلى وميض إلهى يستصرخنى، وأين الرحمة التى أشار إليها الله - جل شأنه – فى قوله: ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ هل هذه أيضاً مقرونة بالسكن والمودة؟؟، فإذا بى أشعر وكأنها قانون بمفرده فلو لجأنا إليها فى أحلك اللحظات لأضاءتها، وحسبنا أنه لولاها لما هدى الله عباده.



أسس الزواج الناجح

الزواج مؤسسة أساسها الرغبة في الاستمرارية والنماء، ودعائمها العمل الجاد لتحقيق أفضل النتائج، ولكن ترى ما الذى يجعل مؤسسة زوجية تحقق أعظم الأرباح وأخرى تنوء بأفدح الخسائر التى قد تؤدى به للانهيار؟؟؟

السر فى ذلك فى رأيى إنما يعود للقيادة وأسلوب الإدارة، فلو أحس القائد أنه بمفرده لا يستطيع تحقيق أى تقدم، وأنه مهما بلغت نجاحاته فإن النجاح الأعظم يكمن فى التفاف باقى أفراد المؤسسة حوله، ويقينهم بأنه يعمل ليس من أجل نفسه فقط وإنما هو جزء من كل، وأنه لا يمانع من وجود كادر يسانده بل ويقود المسيرة معه إن لزم الأمر لاستطاع أن يجعل من نفسه اسطوانة هو نقطة ارتكازها والزوجة إطارها والأبناء تروس فيها، وبكل هذه الأجزاء مجتمعة تستطيع الأسرة الدوران فى عجلة الحياة ولا تستطيع أى رياح مهما كانت قوتها دفعها أينما شاءت؛ لأن بها من الثقل ما يحقق الثبات مهما كانت قوة الدفع، أما السفينة التى تغرق فيعزى ذلك إلى سبب من اثنين، إما أن الربان يرى نفسه القائد الأوحد الذى يملك القوى الخارقة التى تستطيع تسيير دفة المركب بمفردها، وفى سبيل ذلك يتجاهل كل من حوله مبرراً ذلك لنفسه بأنه القادر الوحيد ولو التفت لغيره لانحرفت السفينة أو حتى غرقت، وحسبه أنه يحمل الجميع معه وفى سبيل ذلك يستنفذ كل طاقاته وهو لا يعى أن طاقاته بمرور الوقت ستضعف شيئاً فشيئاً، وأن طاقات من حوله تنمو هى الأخرى رويداً رويداً، وأن الكارثة واقعة لا محالة لحظة ظهور ضعفه وقوة الآخرين؛ لأنه وقتها سيجبر على التنحى عن القيادة رغماً عنه ليسلمها لمن اشتد عوده؛ حيث أنهم لم يعتادوا على المشاركة وتبادل الأدوار وإنما اعتادوا على رؤية ربان واحد والباقى كم مهمل لا حق له فى أى شىء.

أما السبب الآخر فيكمن فى تواجد أكثر من ربان للسفينة وبالتحديد الزوج والزوجة؛ حيث يرى أحياناً كل منهما أنه الأقدر على الوصول بالسفينة لشاطىء النجاة، وأن على الآخر الإذعان له أو مساندته على أحسن الفروض، وهنا تبدأ الحروب وربما يستنفذ العمر دون أن تحسم تلك الحروب أو أن يسلم أحدهما للآخر عجلة القيادة، وهنا أيضاً تكون الكارثة مع أول هبة ريح؛ حيث أن السفينة لا تستطيع مواجهة حتى أضعف الرياح، وساعة الغرق يظهر العجز حيث يرمى كل منهما باللائمة على الآخر مدعياً أنه ترك له عجلة القيادة متجاهلاً أنه استنفذ قوته وقوة من أمامه فى صراعات لا معنى لها، وأنه لو استسلم كل منهما للآخر لوصلا لنقطة اتحاد ملؤها القوة، ولما استطاعت أى رياح النوال من تلك السفينة. فالزواج مشاركة وليس استئثار وتعلم، وليس علم ثابت وعطاء يثمره الأخذ، وقبل كل هذا ضمير مستيقظ وقلب محب للعطاء، ونفس يغلب فيها الإيثار على الأثرة.

زواج غير متكافئ جاهل.. ولاب توب

هناك العديد والعديد من الزيجات الغير متكافئة فى جانب وربما جوانب، فترى ما مدى نجاحها؟ وما الحد الأدنى الواجب تواجده من التكافؤ؟ وماذا لو انعدم؟ وما المقصود بالتكافؤ أصلاً؟ وهل له أصول شرعية أم أنه ضرورة اجتماعية؟

التكافؤ فى رأيى يعنى: التوازن بين الأشياء ككفتي الميزان اللذان يمثلان الفيصل فى البيع والشراء؛ حيث أنهما سبيل الرضا ومنع النزاع بين البائع والمشترى، ومرد ذلك أنه لا مجال فيهما للغش ولذا اعتدنا على الرمز بهما للعدل؛ وحيث كان العدل يكون الرضا الذى هو أصل السعادة الحقيقية، وهكذا الزواج مع الفارق حيث أن الزواج عرض وقبول وليس بيع شىء، ولكنه أولاً وأخيراً شركة بين اثنين بعقد واضح الأركان ، والعقد عادة ما يكون على مستوى المتعاقدين؛ لذا نجد من العقود ما يتضمن بند واحد، ومنها ما يتضمن العديد من البنود، كل حسب رغباته واحتياجاته ولا غضاضة فى ذلك؛ حيث أن الشرع يقر أن العقد شريعة المتعاقدين، ولذا أقر الإسلام التكافؤ لضمان دوام العشرة فكلما كان هناك تقارب عمرى وفكرى ومادى واجتماعي، كلما كان ذلك أدعى للنجاح لأن التقارب طريق للاستمرارية والتنافر طريق للتباعد والضياع دائماً وليس أدل على ذلك فى الإسلام من قاعدة «مهر المثل» أى أن يفرض للمرأة التى لم يحدد مهرها مهر مثل من تماثلها اجتماعياً، ولنتأمل الدقة فى جعل المادية في المرتبة الثانية بعد الاجتماعية وليس العكس، وكذا فى المرحلة السنية فلا جدال على أن لكل مرحلة جمالها وتصادم الجمال المتباين ربما يولد قبحاً، إذن للتكافؤ أصول شرعية وتواجدها أو اندثارها إنما يتوقف على الثقافات والأعراف الاجتماعية، فكلما زادت ثقافة المجتمع ووعيه كلما زاد التمسك بها والعكس، وفي العكس هذا مكمن الخطر؛ حيث أننا نجد أن المجتمعات الجاهلة تنظرللمرأة على أنها سلعة من يستطيع شراءها وإعداد المكان المناسب عنده لها فهو كفء لها، وكذا المجتمعات الفقيرة رغم أن النتيجة واحدة والفشل مضمون فى الاثنين وإن اختلفت صوره ، والفيصل هنا نوع التكافؤ فلو كان مادياً فقط ربما تكون هناك فرص للنجاح حيث أن المادة ليست هى المعول الأساسي فى الزواج، فإذا تكافأت العقول والنفوس فلن ينظر لها حتى وإن نظر لها تكون النظرة هامشية ولكن الكارثة الحق عندما يكون هناك تكافؤ مادى واجتماعى وتباعد فكرى ومعنوى فشتان ما بين العالم والجاهل، حتى وإن كانت الدرجة العلمية واحدة

فهناك المتعلم المبدع حتى فى أشيائه البسيطة الذى يحمل فكراً ومعيناً لا ينبض من الشعور بنفسه وغيره، وهناك من تعلم وأوصله علمه لكونه قطار يسير على قضبان يستحيل الحيد عنه يقيناً منه أنه سيصل بأمان، ومجرد التفكير حتي في سرعة السير هلاك، وحسبه أنه فى منطقة وسطى ما بين الدابة والطائرة، وخير الأمور الوسط وهنا يكون التصادم الحق وما أفظع كوارث القطارات – رغم ندرتها- فالصورة هنا تكون أشبه ما تكون بالجاهل الذى يشترى كمبيوتر فهو ينظر له على أنه نوع من الوجاهة وبامتلاكه إثبات لنفسه وللآخرين أنه قادر على مسايرة الحديث، بل واقتنائه وهو لا يدرى أنه شتان بين الامتلاك المادى والامتلاك الحقيقى؛ وأن الكمبيوتر مستحيل أن يعطي ما بداخله إلا لمن يستطيع فتحه، بل والتعامل معه وأنه مستحيل أن يكون بينهما أى صداقة أو حتى منفعة بغير ذلك حتي وإن كسره متجاهلاً مدى فداحة ذلك وجرمه، فلن يستطيع حتى بالكسر أخذ ما بداخله؛ لأنه ببساطة يحتفظ لنفسه بحق المنع والعطاء تحت كل الظروف والسبل، وكذا الأزواج فالزوج أو الزوجة الذى لا يكون كفء للتعامل مع الآخر يكون كالجاهل الذى يحمل لاب توب الذى هو أشد أنواع الكمبيوتر تعقيداً، فكلما زاد التخصص كلما احتاج التعامل لمزيد من الدربة والدقة والتعلم وقبل ذلك كله الرغبة.



سجن الزوجية طوق وشرارة

بمجرد أن يتزوج الإنسان نقول أنه بدأ حياته الزوجية، وإذا تأملنا مظهر هذه الكلمة نرى أنها جميلة، حيث جعلت الزواج حياة والحياة أمل وتجديد ورغبة في الاستمرار وغيره من المعاني الجميلة، أما إذا تعمقنا في باطنها فسنجد أنها أحكم من ذلك بكثير؛ حيث أنها جعلت الزواج والحياة شيء واحد وكأن لا حياة خارج إطار الزوجية، هذا مما قد يدفع البعض أحياناً للاحتفاظ بهذا الإطار والحرص على عدم الانفلات منه مهما بلغ سوءه أو ضيقه أو عدم مناسبته، واهماً نفسه أنه إطار الحياة وما دونه الموت والغريزة الإنسانية تتمسك بالحياة أياً كانت وتخشى الموت ولكن ترى ما الذى يجعل ذلك الإطار يضيق بالإنسان يوماً بعد يوم رغم أنه عادة ما يكون فى بدايته رحباً ومناسباً؟!

أحس أن طوق الحياة الزوجية لا يضيق بالإنسان إلا عندما تتراكم بداخله المشاكل ولا يستطيع القضاء عليها والإلقاء بها خارجه، وسبيل ذلك غالباً ما يكون الهروب منها، فعندما يواجه الزوجان مشكلة ويبحثا عن الصلح الظاهرى يكونا مثل من يجد فى بيته جذوة نار في غير موضعها ويخشى أن تشعل حريقاً، فيأتى ببعض القش ليغطى به تلك الجذوة واهماً نفسه أنه بذلك قد أخفاها ولا يعى خطورة ذلك؛ حيث أنه مع أقل شرارة على ذلك السطح الهش الذى صنعه سيشتعل الداخل والخارج، وحتى بدون شرارة لابد لتلك الجذوة التى أخفيت دون إخماد أن تصل يوماً للسطح الضعيف، ولحظتها يكون الحريق الذى لا يمكن إخماده حيث أنه ترسبات عدة كلما أخمدت أحدها اشتعل الآخر حتى يشتعل الطوق كله ويعم السواد الذى يصعب معه الرؤية، مما يشعر الإنسان ببشاعة الموت فيسعى جاهداً لكسر ذلك الطوق والانفلات منه حتى ولو كان الموت خارجه، فحسبه أنه موت طاهر وجميل بالنسبة للموت خنقاً واشتعالاً، فحتى الموت فيه نسبة من الجمال والقبح، والأمن والفزع، والرحابة والضيق، ولو أن الإنسان لم يدمن الهروب منذ بداية دخول الطوق وواجه كل نقطة علقت به مهما كان حجمها بحسم، وبذل قصارى جهده فى القضاء عليها وإلقاء نفاياتها خارجه لظل الطوق رحباً جميلاً، بل ربما زاد الإحساس برحابته كلما زاد الإحساس بضيق الزمن.



كسر اللعبة وتحطيم الزوجة

كثيراً ما نرى زيجات سماءها الحب وأرضها الشجار والتعاسة فتعلونا الدهشة وربما النقمة علي ذلك الحب الذى يفترض أنه يولد سعادة ورضا ونتساءل عن السر فى ذلك وكيف لنسيم الحب أن يهب بعواصف مدمرة؟!!

فالمحب له رؤية خاصة منبعها الرضا ومصبها الجمال فرضاه عن المحبوب يجعله يراه فى أجمل صورة بل فى صورة فريدة، وطبيعى من يمتلك صورة فريدة يحاول الحفاظ عليها بشتى الطرق ويخشي عليها حتى من لمساته، ويحاول جاهداً محو آثار الزمن من فوقها، فما الفرق بينها وبين المحبوبة بعد المعاشرة ربما لأنها تحولت من مجرد صورة متحركة أمام عينيه إلى حقيقة ناطقة يلمس كل ما فيها بيديه، بل وبفكره وعواطفه فيصبح كأسطورة الفنان الذى صنع تمثالاً جميلاً لامرأة وظل كل يوم يبدع فيه بفكره ويديه حتى عشقه وتوسل للآلهة أن يحولوه لامرأة حقيقية واستجابت الآلهة له، وبعد فترة من المعاشرة الحقيقية حن للتمثال وذهب للآلهة يتوسل إليهم أن يعيدوا له التمثال مرة أخى فهل المعاشرة الحقيقية هى التى أفقدته الحب أم أنه لم يهتم بها قدر اهتمامه بالتمثال؟ وهذا هو الأرجح فى نظرى، فعندما كانت تمثال كان يحس فيها بعناء التشكيل وروعة الإبداع فأحب فيها صناعته حتى كان لا يرى فيها من اللمسات إلا ما يرى هو أنه إضافة فيضعه بيده، وطبيعى أن من يصنع شيئاً يحبه كما أن التمثال لم يكن يملك حق القبول أو الرفض لشيء، فكل ما يحذف منه لا يحاول مجاهدة حذفه، وكل ما يضاف إليه لا يحاول مقاومة إضافته، حتى أحس الصانع أنه خالق مبدع وتمثاله مخلوق مطيع والطاعة سبيل للرضا، أما عندما أصبحت امرأة حقيقية فقد أصبح لها نظرة خاصة واحتياجات ومجالات شتى للرفض والقبول مما يفتح باب الشجار وربما النفور، بل والافتراق أحياناً وليس هذا على مستوى الأسطورة فقط بل هو على أرض الواقع ومنذ الصغر؛ فالطفل عندما يذهب لمحل ألعاب يرى مختلف اللعب ولكنه يختار واحدة ويتمسك بها، بل ويصر عليها حتى أنه قد يدفع كل مدخراته فى سبيل الحصول عليها، وربما يبكى ويصرخ ويستنفر كل طاقاته الصواب منها والخطأ فى سبيل امتلاك تلك اللعبة، وفى كل تلك المحاولات يشعر أنه سيسعد بها وأنها أمنيته من بين كل الألعاب وأنها ستقضى على الفراغ عنده، وأنها، وأنها

وبمجرد امتلاكها يسعد ثم يبدأ مرحلة الاستشكاف لمكونات تلك اللعبة، ويلى ذلك البحث عن الأشياء التى كان يظن أنها فيها ولم يجدها وربما يكسر بعض أجزاءها فى رحلة البحث هذه، وإذا لم تكن اللعبة جيدة الصنع متماسكة الأجزاء تتكسر ما بين عبث البحث والاستكشاف، أو يصيبها بعض الشروخ على أحسن الفروض

وفى النهاية ربما يكسرها هو بيده أو يلقى بها وراء ظهره متناسياً كل الجهود التى بذلها فى سبيل الحصول عليها متجاهلاً وضعها قبل أن تقع بين يديه وتحت رحمته وهو فى كل هذه الأطوار لا يعى فداحة ما يرتكبه من جرم فى حق تلك اللعبة المسكينة، وهكذا الزوجة.

ذبح الضحية درب من الكفر

كثيراً ما نرى تضحيات بلا ثمن، فكم من محبة مخلصة فاتها قطار الزواج وهي واقفة في محطة الانتظار يحدوها الأمل بل وربما ترى من تنتظر راكباً قطار الحياة ومارّاً من أمامها وتصر على انتظاره واهمة نفسها بأنه يوماً سيدرك أنه أخطأ الطريق والرفيق، وأنه لابد عائد إليها، وكم من أرملة وهبت حياتها لأبنائها مؤملة نفسها أنهم بالنسبة لها حياة اليوم ورفقاء الغد وأمان المستقبل، إلى أن تجد نفسها وحيدة بطريق يستحيل أن تتقابل فيه مع رفيق، وكم من زوجة أفنت حياتها من أجل زوج أحبته ووهبته كل ما تملك حتى أوصلها العشق والصدق لدرجة الذوبان فيه، فلم تعد ترى نفسها أو تشعر لها بمطلب إلى أن يصل هو لدرب الأمان فيسلكه وحده تاركاً إياها بدرب الحاجة والخوف.

وكم من صديق اتخذ الصدق والمساندة لصديقه شرعة ومنهاجاً وعانى في سبيل ذلك ما عاني وهو سعيد بعطائه إلى أن فاجأته الحاجة يوماً فأسرع إلى صديقه فإذا به يتنكر له وكأنه صديق درب وانتهى، وكم من تضحيات ربما أعظم من ذلك أو أقل تكن نهايتها المقابلة بالجحود والنكران، حتى أننا لم نعد نتوقف أمام ذلك كثيراً أو نعجب، بل ربما نعلق على ذلك بقولنا هكذا الحياة، وكأننا نقر أن الغدر والخيانة وعدم الوفاء هى ناموس الحياة الطبيعي حتى كدنا نتقبله برضا ووصلنا لما هو أفظع منه، وهو ذبح الضحية حيث أننا لم نعد نكتفى بتركها وشأنها تتجرع مرارة عطائها الحلو فحسب بل نحاول إيهامها بأن عطاءها كان بهدف الأخذ، وصدقها كان درب من الكذب، وتحملها كان رغماً عنها، ودربها المملوء بالتضحية والعطاء لم يكن أمامها درب سواه بل ربما نستكثر عليها إحساسها بحلاوة العطاء وقتما كانت تعطي، هذا إن كنا نعترف لها بعطايا فنذبحها بالسكين التى أرادت أن تفتح بها أمامنا باب الحياة حتى وإن كانت باردة، وكأننا نقول لأنفسنا الضحية لابد وأن تذبح فى النهاية وكأننا أصبحنا لا نفرق بين كبش الفدى بين الأنعام والبشر، رغم أن هناك فى الحقيقة فرق شاسع، فالضحية التي شرعها الله تكون من البهائم والمضحي يكون من البشر، أما الضحية التى أصبحت تحكمها شريعة الغاب البشرية فالعكس.



ليس هناك طلاق بائن

• هل هناك طلاق حقاً؟ وبالتحديد هل هناك طلاق بائن؟

وجدت هذا السؤال يتسلل إلى نفسي خفية رغم إدراكي التام لمعنى الطلاق شرعاً وقانوناً وعرفاً؛ حيث أنه التفريق بين الزوجين، وأعلم أيضاً أن الطلاق البائن هو الذى لا رجعة فيه، وهذا شرع الله الغير قابل للنقاش، ولكنى أتساءل عن الطلاق النفسى، بمعنى أدق هل يمكن انفصال الأزواج نفسياً انفصالاً بائناً؟

أشعر أن ذلك شيء مستحيل؛ فالإنسان ربما يظل طوال عمره يتذكر الرحلات التي قضاها الطويلة منها والقصيرة، الجميلة منها والسيئة، حتى لو كانت مجرد ساعات، بل ويظل يذكر رفاقه فيها، وكيف كانوا، وكيف كان معهم، فما بالك بالزواج الذى قد يكون أطول رحلة يقضيها الإنسان فى حياته حتى ولو لم تستغرق بضع شهور؛ حيث أن لها سوابق ولواحق قد تمتد لتشمل العمر كله، فالإنسان منذ الطفولة يظل يحلم بتلك الرحلة وكيف ستكون، ثم ينتقل من الحلم إلى التفكير فالإعداد فالمعايشة الحقة، وما بين الحلم والفكر، والإعداد وبداية المعايشة، يستغرق الإنسان أحلى سنين عمره وأبدع طاقاته على التخيل والتخطيط، إلى أن يصطدم بجدار الواقع فيكون كالفارس الذى ظل يتخطى الحواجز ممتطياً جواده واحداً تلو الآخر إلى أن وصل لحاجز السباق الحقيقي فعجز عن اجتيازه، وسقط على الأرض وفر منه الجواد، ورشقه الجمهور بمختلف السهام، فهل لهذا الفارس أن ينسى تلك المسابقة التى كان يظنها مسابقة العمر؟!............ .

مستحيل.. حتى ولو حاول النهوض، ولو نجح وبدأ مسابقة أصعب واجتازها بمهارة، إلا أنه لن يستطيع محو مرارة المسابقة الأولى، خاصة وأن الجمهور سيظل يشير إليه قائلاً:«هذا هو الفارس الذى سقط من قبل»، فكما أن الذكرى هى الجنة الوحيدة التى لم يطرد منها الإنسان، هى أيضاً النار الوحيدة التى لا يستطيع الإنسان إخمادها حتى وإن هدأت جذوتها، فهى تظل دائماً على أهبة الاستعداد للاشتعال بأضعف شرارة.

لذا أحس أنه لا يمكن أن يكون هناك طلاق نفسى بائن، وكيف يستطيع الإنسان التفريق بينه وبين مرحلة من عمره كان يرسم عليها آمال العمر كله؟!، كيف يمحو ذكرى مرحلة شهدته بكل الأطوار وعلى كل الأشكال؟! مرحلة تعرت فيها كل نفسه أمام من توهم أنه جزء من نفسه!!



طلاق فى زواج

هناك العديد العديد من البيوت التى تضم بين أركانها من هم متزوجون شرعاً مطلقون فعلاً!!، فترى ما السر وراء تلك الحالات وهل هى بهذا الشكل تكون شرعية فعلاً؟! ومن أين تستمد مشروعيتها؟ وهل أحل الله ذلك؟ وهل يرتضيه المجتمع؟ وهل يسعد به صاحبه؟ وهل؟ وهل؟ وهل؟.

أسئلة كثيرة وعجيبة بل وغريبة قدر غرابة هذا الشكل الذى لم أجد بد من عرضه على جميع الأبواب، وحيثما وجدنا المدخل نستطيع تحليله والحكم عليه، ولنبدأ بالمدخل الشرعى للزواج الذى لا خلاف عليه وهو شرع الله الذى حدد تلك العلاقة بكل تفاصيلها بداية بالسبب وانتهاء بالغاية ماراً بالوسيلة وقد جمعها – سبحانه وتعالى- فى قوله ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾، ومن ينظر قليلاً لهذه الآية الكريمة يجد بها تعريفاً جامعاً مانعاً للزواج، وحسبنا كلمة ﴿أَنفُسِكُمْ﴾، وأظن أن خلق المرأة من ضلع الرجل ما هو إلا لضمان الألفة وعدم الإحساس بالغربة فالإنسان لا يألف شيء قدر ألفته لنفسه ويستحيل أن يحس بالغربة بينه وبين جزء من نفسه فربما يشعر أحياناً بغربة نفسه ككل سواء عن نفسه أو عن مجتمعه، ولكن يستحيل أن يشعر بغربة جزء من نفسه عن نفسه وزيادة فى تعميق التوحد وعدم الاغتراب جعل الهدف من الزواج هو السكن وليس هناك مكان يستطيع الإنسان أن يكون مع نفسه على طبيعتها تماماً حتى وإن تعرت إلا السكن وأظن أيضاً أن سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ﴾تأكيد على وجوب المصداقية والشفافية التامة بين الأزواج وقد وضع لنا أيضاً السبيل للوصول إلى ذلك ألا وهو المودة والرحمة.

فهل يمكن لشرع يجمع بين السكن والمودة والرحمة أن يصل بالزواج لأن يصبح مجرد كلمة وستار يستظل به غريبان؟!!، يستحيل ذلك لأن فى ذلك ما فيه من الغش والخداع لذلك البيت والمجتمع ككل وليس هذا من الشرع السماوى فى شيء ولذا أعتقد أنه ليس لهذا الزواج مدخل فى شريعة السماء فلننحها جانباً ونبحث له عن مدخل فى شريعة الأرض التى تحتمل الخطأ والنقصان دوماً كواضعيها ، فترى ما الذى يمكن أن يجعل المجتمع يصل ببناء قدسى إلى بناء خاو مثل ذلك؟!!

إنـه ولا شك الضعف الفردى والخطأ الاجتماعى وتداخلهما معاً فالمجتمع يربى الأفراد على أن الزواج إطار اجتماعى للزوجين وفي داخل الإطار منتهى الحرية فى الحركة والتنقل والسير والتعثر وذلك خصوصيته لا دخل لأحد بها أما الإطار الخارجى فهو حق المجتمع وعليه العين دائماً ولا يحق للزوجين محاولة تغييره أو حتى المساس به وكأننا نقول أن الزواج عملة ذات وجهين وجه واضح نتعامل به مع المجتمع وإن اختفت بعض معالمه يكن عرضة لعدم الصرف وفى ذلك ما فيه من الخطورة الاجتماعية ووجه شخصى لا يراه إلا صاحبه فحتى لو عفا عليه الدهر ما عليه إلا تغطيته وإظهار الوجه اللامع الذى يتداوله المجتمع وهنا مكمن الخطر حيث الانقسام في حين أن الزواج كنهه الحقيقى هو التوحد وحيثما بدأ الانقسام كان الشقاق ولا شك، والشرخ الغير الواضح يظل ينمو شيئاً فشيئاً إلى أن يصل إلى السطح وهنا يكون الانهيار ولا محالة رغم أننا لو تعاملنا مع البناء من البداية على أنه كل لا يتجزأ ربما استطعنا معالجة التشقق قبل أن يصبح كسراً، ولكنه الخوف فالمرأة التى تربت على امتداد مشروعية خطواتها من كونها متزوجة فحسب والرجل الذى تربى على أن الرجولة تأبى الاعتراف بأى فشل تقهرهما المخاوف دوماً فهما يخافان من الاعتراف بعدم التوافق، يخافان من مواجهة النفس، يخافان من نظرة المجتمع، يخافان من النتائج، يخافان حتى من محاولة الإصلاح، يخافان يخافان إلى أن يأتى اليوم الذى تنهدم قواهما تماماً فيخافان حتى من خوفهما وهنا الموت لا محالة؛ لأن الإنسان إذا خاف من المجتمع ربما يهرب فيتقوقع داخل نفسه ويتحول من كائن اجتماعى إلى إنسان انعزالى، ولكن إذا خاف حتى من نفسه فإلى أين المفر؟، فمن تضيق به نفسه لا يمكن أن يسعه أى مكان فى الحياة وهنا تتضح الصورة بعد طول معاناة ويتضح مدى قبحها وعدم مشروعيتها التى ربما لو أظهرها من البداية وقت أن كان يمتلك بعض القوة ربما استطاع أن يجملها وربما استطاع صنع صورة أخرى مستفيداً من أخطاء الأولى ولكنه الخوف الذى ظل يكبله ويوهمه بأنه قوة إلى أن تحين لحظة الانهيار فلا صورة واضحة المعالم ولا قوة تستطيع الدفع أو البناء أو حتى وضع الحدود بين المشروع والغير مشروع فتختلط الأمور حتى بين الزواج والطلاق فيكون الطلاق فى ثوب الزواج تحت سقف العجز الذى هو المدخل الحقيقى لتلك الصورة البشعة المؤلمة.



الزواج والتدين

كلما نضج الإنسان وزاد علمه كلما أيقن أن شرع الله هو الحق وأن به السكينة والأمان وأنه سبيل النجاة دنيا وآخرة وما سواه من ادعاءات إنما هى هراء فى هراء وغالباً ما يصل الإنسان لهذه الفكرة بعد تعدى مرحلة الشباب حيث الفكر الذى صقلته التجارب والإحساس الذى يغذيه يقين صادق فيحاول أن يقنع بها أبناءه ومن حوله حيث يكون تخطى هو المسئولية عن نفسه فقط وأصبح مسؤولاً عن أسرة على وشك أن تصبح أسر متعددة فينصح كل فرد فيها باختيار نصفه الآخر ممن يراعى شرع الله ليتقى الله فيه فيسعد دنيا وآخرة ولقصر نظرنا وضعف بصيرتنا نتجه لأبسط الصور الدالة على التدين فنبحث عن الشاب الذى يتحلى بالمظهر الدينى كاللحية واعتياد ارتياد المساجد والتحدث فى أمور الدين متوهمين أنه الشاب المتدين حقاً حتى أننا قد نتغاضى فى سبيل الحصول عليه عن أمور كثيرة كالكفاءة الاجتماعية أو المادية رغم أنها من الدين مقتنعين أنفسنا أن الأمور الاجتماعية والمادية وغيرها هى فى هوامش الدين لكن الشاب المتدين إنما هو من بؤرة الدين وحسبنا ذلك وقد تصدق هذه الفكرة فنسعد ويسعد أبناؤنا وقد تحدث الكارثة فنشقى ويشقى أبناؤنا عندما نكتشف أن هذا الشاب متدين شكلاً فقط حيث الازدواجية الرهيبة فى حياته فتجده لنفسه يتعامل على هواه فقط ولغيره يحكم شرع الله، ولنتأمل أبسط الصور بداية من الخطبة حيث تجده شيئاً فشيئاً يريد توسعة حيز حقوقه فهو يريد الجلوس إلى خطيبته أكثر وقت ممكن ويريد محادثتها أكبر وقت ممكن وربما يريد الاختلاء بها إن أمكن متجاهلاً أن ذلك كله ليس من صحيح الدين محاولاً إيهام نفسه بل ومن حوله أنه ليس له تجارب سابقة وأنه يحاول أن يسعد بكل المراحل وأنه لا يتخطى شرع الله وأنه يحاول فى كل هذه الساعات إقناعها وترويدها على كيفية بناء البيت المسلم الصحيح والإسعاد به والتوفيق بين الدين والدنيا وأنه وأنه......... وللأسف ولأن نظراتنا قاصرة أمام كل من تحدث بالدين نحاول التبرير له وقبوله إلى أن يتم الزواج فتجد الأقبح من ذلك كقطع الأرحام بدعوى أن زيارة الأرحام تفتح الباب للاختلاط وهذا ليس من الدين كالتعامل بلغة الأمر والرأى الواحد بدعوى أن هذا من باب القوامة كمطالبة الزوجة بالتحول إلى آلة لإسعاده وإسعاده فقط بدعوى أنه صاحب الحق الأول عليها

وأن الرسول ﷺ لو كان آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمر المرأة أن تسجد لزوجها وفى ذلك إشارة صريحة للطاعة التامة كالمطالبة بتفضيله بل وتفضيل أهله أحياناً على نفسها وأهلها بدعوى الإيثار وأنه من صحيح الدين بارهاقها بل وإمراضها أحياناً بكثرة الإنجاب المتلاحق لأننا مأمورون بالتكاثر ويظل يلاحقها شيئاً فشيئاً لتحويلها إلي جارية تصم وتعمى عما سواه متجاهلاً ما في ذلك من فداحة جرم فى حق نفسه أولاً حيث أنه تحول إلي ظالم متجاهلاً أن الله – سبحانه وتعالى – حرم الظلم على نفسه وأمر عباده بعدم الظلم وأنه ظلمات يوم القيامة وحسبه دليل على الظلم أنه نكث كل العهود التى تقدم بها للحصول على هذه الزوجة وبأنه سيراعى الله فيها وأبسط صور مراعاة الله: حسن العشرة، وظلم زوجته بأن حول حياتها إلى معاناة دائمة حتى شغلها عن نفسها بل ربما حتى عن ذكر ربها بكثرة المعاناة وظلم مجتمعه بأن قدم له أسرة سيئة تعاني ما تعانى من الازدواجية والاضطرابات النفسية والأدهى من ذلك كله أنه ظلم دينه بأن أصبح صورة سيئة يشير إليه الجاهل بقوله:«أليس هذا هو المتدين؟!».

والجاهل فقط هو الذى يقول ذلك لأن صاحب العقيدة الصحيحة يعلم أن هذا الإنسان المتدين شكلاً فقط إنما هو أبعد ما يكون عن صحيح الدين وأن الدين هو الفطرة السليمة وأن الدين هو خدمة الأسرة بل والمجتمع وأن الدين هو المحافظة على البناء الأسرى دون أدنى شروخ وأن الدين هو الوفاء بالوعود والصدق والتسامح والصبر وغيره من أعظم الصفات وأننا لا نكتشفه بحق إلا فى التعامل السوى الراقى، فكما قال سيد الخلق ﷺ: «**الدين المعاملة**».



أكذوبة الزوج العصبى

هناك العديد من الأزواج الذين يتسمون بالعصبية في التعامل فتجده عصبى مع زوجته ومع غيرها وهؤلاء يسهل اكتشافهم من بداية التعارف وتتضح شخصيتهم حتى فى المواقف البسيطة وعندما تسأل عنهم يجيبك كل من يحيط بهم فى البيت أو العمل أو غيره بأنهم عصبيون وهؤلاء لا عجب منهم حيث انها سمة شخصية ملازمة لهم منذ الصغر ومع جميع البشر وحق لكل من يقترب منهم أن يقبلهم أو يرفضهم لاتصافهم بها فوضوحهم يعطيك حق الاختيار ومن يعطيك حق الاختيار ينصفك من نفسه وينصف نفسه منك ومن ربه ولكن العجب كل العجب من الزوج الذى يتقدم اليك بمنتهى الهدوء والاتزان ويظل هكذا فى فترة الخطوبة مهما طالت فتراه لا يخطىء إلا نادراً وإذا أخطأ يسارع بالاعتذار وعندما تسأل عنه فى المحيط الخارجى لا تجد أحداً يصفه بهذه الصفة بل ربما على النقيض تماماً تجد رؤساءه فى العمل يمدحون انضباطه وهدوءه واتزانه وغيره من الصفات الجميلة التى تتناقض مع العصبية تماماً حتى أنك تجده أحياناً من جميل هذه الصفات يتبوأ مراكز ربما لا يصل لها ممن هم فى مثل عمره إلا قليل فتقبله وكلك أمل أن تتعايش مع جميل هذه الصفات فى أعلى درجاتها من باب «**خيركم خيركم لأهله**» فتفاجأ بالنقيض تماماً وهنا تكون الكارثة حيث تجد العصبية الغير مقننة وما يتبعها من سيئ الصفات حيث سلاطة اللسان وربما اليد وتجاوز كل الخطوط وعندما تحاول تحليل ما ترى وتواجهه بأنه إما كاذب أو مدعى أو مضطرب الشخصية على أحسن الفروض إن لم يكن يعانى من انفصام حيث كان يتعامل بصورة مختلفة تماماً ربما يسخر منك أو يصفك بالتخيل وإن نجحت فى اقناعه وأعانك الله على ذلك رغم صعوبته يصفك بتحميل الأمور أكثر من حقيقتها بالكثير وبالتوهم وضعف الإدراك لأنه طبيعى جداً كل ما هنالك أنه عصبى ويسهل استفزازه فيخطئ ويعترف بعد ذلك ويحاول الإصلاح وأن طبيعته تتحدد على أساس من هو أمامه حتى لو كان طفلاً فإذا كان من أمامه محترم يكون هو أكثر احتراماً أما إذا كان من أمامه مستفزاً ومخطئ بأى شكل فهو يخرجه عن شعوره وتظهر عصبيته وكأن عصبيته هذه شيء فى جيبه من يتعامل معه إما أن يمد يده فيخرجه وإما أن يستطيع السيطرة على جيبه فلا يراه متناسياً أن الاتزان الحقيقى إنما يتضح أكثر فى المواقف السيئة وأن المتزن فعلاً ليس من اليسير استفزازه

وحقيقة الأمر أن هذا الإنسان ظهرت عصبيته بعد الزواج وربما بعد طول معاشرة من أحد بأبين إما باب قول الشاعر العربى:

إن أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمرد

وهو لأنه لئيم تمرد، وإما من باب الحكمة القائلة :«من أمن العقوبة ساء الأدب»، حيث أنه فى فترة الخطوبة يسهل العقاب المادى والمعنوى غالباً أما بعد الزواج فربما يستحيل.

ظلمنا أبناءنا

قديماً قالوا:«فعل رجل فى ألف رجل أبلغ من كلام ألف رجل لرجل» وفى ذلك ما فيه من بعد نظر وعظيم حكمة حيث أثبتت المعايشة أن الإنسان إنما يعتقد كل الاعتقاد فيما يراه وغالباً ما يطبقه دون أدنى تفكير خاصة إذا كان رآه فى بدايات سن التعلم وعايشه ممن هم المصدر الأول له فى التعلم – أمه وأبيه- بدليل أننا أحياناً نصنف الأسر بناء على هذه النظرية فنقول هذه أسرة علمية وهذه أسرة مادية وهذه أدبية وغيره من السمات التي تغلب على الأسر، فالأسرة ما هي إلا أم وأب وأبناء إنما هم بمثابة النبتة التى تتعهدها بالرعاية بداية من اختيار نوعها مروراً برعايتها لتجني ثمرتها التى تتمناها وتحلم بها وكلنا ولا شك يحلم بأجمل الثمار فكلنا فى الحلم سواء ولكن من الذى يجنى؟؟.

يجنى من يحسن الزراعة ويتكبد عناء تحمل مشقاتها وتحمل المشاق إنما هو فعل وليس كلام حيث ان الكلام لا مشقة فيه فما أسهل أن أمسك ابنى وأظل أردد على مسامعه جميل الكلام ولكن المشقة والعناء الحق هو أن أريه جميل الفعل لأنى أدرب نفسي أولاً على جميل الفعل هذا بداية من الفكرة الصحيحة مروراً بكيفية تطبيقها وصولاً بعرضها أمام نفسى وغيرى على أرض الواقع فأنا هنا أربى نفسي أولاً وفى ذلك ما فيه من مشقة التعلم فى الكبر ولكنه أصح الطرق لتعليم ابنى فهو عندما يسألنى وأجيبه وينظر للواقع فيرى هذه الإجابة، فأنا هنا رسخت فى نفسه مبدأ الصدق ربما قبل أن يتعلم حتى هذه الكلمة أو يعرف معناها وليس أدل على ذلك من أشخاص بل ربما أجيال عظيمة تحلت بأعظم الصفات وقد كانت نشأتها فى أسر بسيطة فهذه الأسرة البسيطة نشأت على فطرة الله التى فطرها عليها أى على الطبيعة النقية التى فيها ما فيها من الصدق والصفاء وحب العمل وتعاملت مع الأرض التى تجنى منها ما تزرع فيها وأحبتها فنشأ أبناؤهم فى ظل هذه الفطرة السليمة التي لم تتلون نتيجة العولمة أو غيرها وأحضان الطبيعة الجميلة النقية التي لم تلوثها عوادم المدنية فاعتنقت أجمل المبادئ فكان هذا النتاج المتميز الذى ربما ما زال يفرز نتاجه حتى اليوم فنعجب كيف لهذه الأسر البسيطة أن تنتج هؤلاء العمالقة؟ وإذا تأملنا نجد أنه لا مجال للعجب وهذا هو الطبيعي فمن يتعايش مع الحق والجمال والصدق في أبسط صوره يصل فى النهاية لكونه صورة من أعمق صوره ولكن العجب الحقيقى من عجبنا عندما نرى أسرة ناجحة اجتماعياً ومادياً وعلمياً وأبناءها فشلة ونقول كيف دون تحليل ولو تأملنا بصدق لوجدنا ذلك ربما يكون طبيعياً

فالأم التى تدخل طفلها المدرسة وتقول له ابحث عن الشاطر وصاحبه وهى لا تدرى أنها بذلك تزرع فيه مبدأ ابحث عن مصلحتك فقط، ابحث عن كيف تأخذ وتستفيد فقط ولو أنها قالت له ابحث عن الخلوق وصادقه لحققت أكثر مما تريد فالخلوق طبيعى سيجتهد ومن يجتهد يكن متفوقاً، تقول له اجلس فى المقاعد الأمامية لتركز وكأنها ترسخ فيه عدم النظر لمصلحة غيره أو لمن هو وراءه فالمهم أن تكون أنت فى المقدمة وتتوالى التعليمات التى يكون مقتضاها غالباً نفسك ونفسك فقط ثم تصرخ بعد ذلك طفلى أنانى متجاهلة أنها هى التى تغرس فيه ذلك بل وتتقبله المهم أن يتفوق ويصل وتتراكم الأخطاء إلى أن يصل إلى أولى الشهادات البسيطة فتجدها ربما تحثه على الغش – إن أمكن – بل أحياناً تحثه على كراهية المراقب الصحيح حتى أنها أحياناً تلعن المعلم الذى لم يساعد ابنها على الغش بل وإبدائه – إن أمكن لها ذلك – وعندما تحاول مناقشتها فى مدى هذا الخطأ تحاول إسكاتك بل وإسكات ضميرها لأنها تعلم أنه خطأ بمحاولة تبريره كقول غيره يغش أو المساواة فى الظلم عدل أو غيره من النظرات الواهية التى لا أساس لها من الصحة فيكبر الابن ويكبر بداخله مبدأ حق لك أن تحصل على ما هو ليس من حقك وحقق رغباتك حتى لو كان بأسلوب غير صحيح حتى ولو كان على حساب أى أحد حتى أننا نجد البعض يسعون لتحقيق المركز العلمى لأبنائهم ولو بالرشوة ولو بالسرقة ولو بشراء الضمير متجاهلين ما فى ذلك من جرم وعواقب وخيمة رغم أنه قد يحقق لهم ما يتمنون فى البداية ولكنهم سرعان ما يصرخون ابنى فى الجامعة ساء خلقه فأصبح يبتزنى مادياً ويكذب على فى أشياء كثيرة كأن يأخذ المال لينفقه على أخطائه وشهواته فكيف أوضح له أن ذلك سرقة وكذب فى آن واحد متناسين أنهم هم أول من علموه ذلك عندما أباحوا له سرقة مجهود غيره والغش حتى ولو كان عنوة ويصل الصراخ قمته عندما يسير الابن مع شلة السوء التى هى طريق الضياع ولو دققوا النظر لوجدوا أن هذه الشلة هى التى تحقق له رغباته التى يتوهم أنها ما يريد متناسين أنهم هم الذين زرعوا فيه ذلك عندما أجبروه على الالتصاق دوماً بمن يمكن له أن يستفيد منه ويظل الصراخ يعلو ابنى إذا كان لا يفكر فى نفسه أليس حرام عليه أنه لا يفكر فينا نحن الذين كنا دائماً فى ظهره وندفعه للأمام متناسين أيضاً أنه منذ بداية خطواته الفكرية وجهوه إلى عدم النظر لمن خلفه والمهم أن يكون هو فى المقدمة وغيره وغيره من الأخطاء الجسيمة التى هى فى بدايتها مبادئ خاطئة زرعناها نحن منذ الصغر، فلا عجب أن نجنيها اليوم أخطاء فادحة.



الصفح الجميل أو الانفصال الأخير

غالباً ما تكون السنة الأولى فى الزواج أصعب السنين حيث المعاشرة الحق بلا تجمل وبها يكثر التصادم والصراع وكيف لا وهو لقاء دائم بين شخصين ربما تكون الفروقات الفردية بينهما كبيرة جداً لدرجة عدم مقدرة كل منهما أو أحدهما على استيعابها وربما لدرجة أن يفقد أحدهما اتزانه فيخطئ أو حتى تتابع أخطاؤه وهنا يكون الطرف الآخر فى وضع الاختيار إما الانفصال وإما التسامح ومحاولة تقريب وجهات النظر والبحث عن نقطة الالتقاء التى يمكن البدء بها مرة أخرى ولكل من الاختيارين عواقبه المهم أن يحدد الإنسان قدراته وعليها يتحدد الاختيار فالانفصال يكون الأيسر دائماً حيث يحدد الإنسان أنه لا يستطيع أن يتعايش مع إنسان أخطأ هذا الخطأ أو يتصف بهذه الصفات التى لا تتوافق معه او يصر على العيش بأسلوب لا يتماشى معه أو غيره من الأسباب التى يصعب عليه قبولها وهذا قد يكون صعب فى مجتمع ينظر للانفصال على أنه وصمة عار ويجرم كل من يتصف به ويحاصر من يقع فيه بل والمقربين منه بجارح النظرة والسؤال ومحاولة التلصص عليهم وكأنها أرض بوار مستباحة وتزداد الصعوبة إذا كان هناك طرف ثالث سيتأثر بهذا الانفصال أى طفل رأى نور الحياة أو لم ير بعد حيث أنه لا ذنب له ولا اختيار ولكنه يكون من المتضررين ولا شك لذا قد نجد الكثير يعاودون النظر مرات ومرات ويحاولون التغاضى عن الأخطاء إن استطاعوا محاولين البدء من جديد بعد الصفح والعتاب وهذا هو الاختيار الثانى والذى قد يكون الأفضل فى حالة واحدة وهى عندما يجد الإنسان فى نفسه المقدرة على الصفح فعلاً والمقدرة الكاملة ليست بالصفح فقط وإنما بالصفح الجميل الذى يدفع الإنسان إلى دفع السيئة بالحسنة فعلاً وإلى تناسى الأخطاء أو العيوب إن لم يكن نسيانها ومحاولة تقديم بعض التنازلات حتى يتم اللقاء بكرامة ويقين فيصح السير وتعلو البداية وتعظم النهاية أما الكارثة الحق فهى عندما يختار الإنسان المواصلة واضعاً فى حسابه أننى تنازلت مرة وعلى الطرف الآخر أن يتنازل مدى الحياة وهذا ليس من الحكمة أو العدل فى شيء فليس من حق إنسان أن يستعبد إنسانا مدى الحياة لأنه أعطى مرة أو مرات فى البداية حتى لو كانت هذه البداية الحياة، وعليه أن يدرك أنه إذا تقبل الطرف المخطئ ذلك الضغط لفترة فمستحيل أن يقبله طوال عمره لأنه بعد فترة من المعايشة الحقيقية يستعيد توازنه وربما يمتلك شجاعة المواجهة والاعتراف خاصة إذا كان قد صوب تلك الأخطاء واستعاد الصورة الجميلة التى يشيد بها من حوله

وأنه لم يجاهد فى تصويبها ظناً منه بقبول الطرف المخطئ لها دوماً فأصبحت كالمرض المزمن الذى تتزايد خطورته مع الأيام بينما الطرف المخطئ خاضع للعلاج الذى يتشافى به مع مرور الأيام وتدور الدائرة وتتقلب الصورة بين اثنين عفا عليهما الزمن ولن يستطيعا شجاعة المواجهة ولا قدرة التسامح والبدء.

الخرس الزوجى

هناك العديد والعديد من الأزواج بعد رحلة كفاح طويلة ومرحلة ليست قصيرة من الحياة الزوجية، التى ربما تحمل كل منهم فى سبيل الوصول إليها العديد والعديد من المصاعب والآلام يصلون فى داخل بيوتهم إلى ما يسميه بعض المحللين النفسيين (الخرس الزوجى)، فترى ما الذى يمكن أن يصل بأزواج كثيراً ما يكونوا على درجة من العلم والثقافة والدراية إلى التخلى عن النقاش الذى هو الوسيلة الادمية الوحيدة للالتقاء والتفاهم على كافة المستويات، وما المراحل التى يمرون بها للوصول إلى ذلك الخرس؟

كل منا قبل زواجه يحلم ولاشك بهمس الكلام، حيث يحلم فى البداية بالتفاهم بمجرد النظرات الناطقة، التى إن تعمقت فيها تقرأ العديد والعديد من المعاني إلى أن تبدأ المعاشرة الزوجية الحقة، ومع بدايتها يدرك أن زمن النظرات المعبرة انتهى، ورتم الحياة السريع لم يعد يسمح بالنظر الكثير فى العيون، فيعدل عن حلمه ولكن يأمل فى عدم التخلى عنه، فيتحول للكلام الهامس ليكون وسيلته فى التفاهم مع الآخرين فلا داعى لعلو الصوت بين اثنين فقط يظلهما سقف واحد، وقد يستمر ذلك إذا كان هدف الاثنين معاً، أما إذا كانا على طرفى نقيض فى الطباع والعادات والتقاليد، فهنا ولا شك لابد أن يتحول الهمس إلى درجة أعلى من الصوت مع كل صدام يزداد العلو درجة إلى أن يصل مداه حيث الصراخ الذى هو المحطة قبل الأخيرة في التعاسة الزوجية، حيث أن بين محطة الهمس والصراخ يبدد الإنسان كل طاقاته النفسية ما بين الاكتفاء بالنظر حيناً، والنقاش الهادئ وحتى العاصف أحياناً، إلى أن يصبح الصراخ هو الوسيلة الدائمة التي يتوهم صاحبها أن بها يوقظ من أمامه، ويظل يصرخ ويصرخ إلى أن تنعدم قواه، وهنا يسلم بأنه لا فائدة من صراخه ويرى أنه لا خيار أمامه سوى الخرس، وهنا تكون الكارثة بحق، حيث يعيشا فى ظل ذلك الخرس كالأعمى والأصم، فالأول لا يرى الثاني والثانى لا يسمع الأول، ولكن ماذا يفعلا وهما فى محطة ليس بها سواهما وقطار الحياة مر من أمامهما ويستحيل أن يعود بظهره مرة أخرى.



الانفصال والقدر

كثيراً ما نفاجأ بانفصال زوجين أو ابتعادهما لحد التلويح بذلك، فتعلونا الدهشة كيف؟!! فهذان بالذات لم يسمع عنهما شيئاً حتى بين أقرب المقربين لهما، وقد كانت الأعين موجهة إليهم بالتقدير حيناً وبالحسد أحياناً ويبدأ المجتمع بفلسفة ذلك، فهناك من يرجعه للمراهقة المتأخرة وهناك من يرجعه للملل الذي قد يطرأ فى منتصف العمر، والبعض يعزيه لأسباب خارجة عن أصحابها كالعين أو غيرها، ولا أحد يرى أن الحقيقة غير ذلك تماماً وربما كان سبب الدهشة هو نفسه السبب الحقيقى، فكونهما فى هدوء وصمت منذ البداية هذا ليس بالشىء الحسن دائماً؛ فالهدوء إن كان هدوء القناعة والاتزان فنعم هو، وهذا يكون واضحاً بداية من ابتسامات الرضا ومروراً بالتوحد النفسى فى مختلف المواقف إلى الاشتراك فى الفكر والرؤى، وهذا الصمت المتزن نادراً ما يكون أما الصمت الذى تتخلله بعض العواصف التى تخرجه عن سمته قليلاً فلا بأس به أيضاً؛ لأنه الطبيعى فما من سفينة تسير فى بحر الحياة إلا وترتطم بأمواجها أحياناً.

وهنا تظهر بعض الأصوات التى ربما تكون تعبيراً عن المواجهة لحين التغلب عليها، كالعامل الذى يعلو صوته أثناء أداء عمله معتقداً أن فى ذلك تسلية وعون، وربما تكون أصوات استغاثة بمن يهمهم أمر نجاة السفينة، وليس فى هذا ضير إن صدر الصوت فى وقته ووصل لمن يعيه، ولحظتها يكون من أسباب النجاة، أما الخوف كل الخوف فمن ذلك الصمت الناتج عن عجز، فلو دققنا النظر فيمن نتعجب لحظة سماع انفصالهما لوجدنا أنفسنا كنا نتعجب أكثر من استمرارهما، وكيف للنقيضين أن يستمرا فى خضم الحياة بذلك الهدوء، والحقيقة أن ذلك الهدوء الصامت ما هو إلا صمت من ذهب صوته أدراج الرياح، أو صمت الخائف الذى يخشى ظهور صوته فينقض عليه الأعداء حينما يحددون مكانه أو........أو........... المهم أن فى النهاية يقرر ابتلاع صوته كالقدر الذى يصل إلى حد الغليان وغطاؤه محكم عليه، فلا التبخر يقلل منه حتى يجف، ولا الغليان يتوقف ويظل هكذا ربما إلى انفجار القدر ولا عجب فى ذلك.



ماذا تريد حواء من آدم؟

المرأة هى المرأة على كافة المستويات، وفى مختلف الأزمنة والعصور، تحن وتشتاق بل تفتقر وتحتاج لآدم دوماً، وإن اختلف قدر ذلك الاحتياج، فترى ما السر فى ذلك؟ وما قدر تلك الحاجة؟ وماذا تحتاج فيه بالضبط؟

وجدتنى أتأمل تلك الأسئلة بل وأكثر منها بكثير وهى تتدرج بى من اليسير إلى الصعب فالأصعب، فتوقفت عند هذا الحد خوفاً من الاصطدام بحائط المستحيل علنى أكتفى بفلسفة الأشياء البسيطة، فالسر فى ذلك الاحتياج أمر طبيعى وضعه الله – سبحانه وتعالى – فينا حتى تستمر الحياة، فلقاء آدم بحواء السبيل الوحيد لذلك ولا خلاف عليه.

ولكنى وجدتنى عاجزة عن تحديد ما تريده حواء من آدم أو فيه، فهى تريد منه الحماية بمختلف أنواعها ودرجاتها المادية منها والمعنوية، فهل يعنى هذا ضعفاً رئيسياً فى حواء تستكمله بآدم أم أنها تريد قوة ثنائية أم الحياة تتطلبهما معاً أم ماذا تريد؟!!

بعد عميق تفكير وجدتنى أشير إلى المجتمع بإصبع الإتهام لا فرق فى ذلك بين مجتمع مثقف وآخر جاهل سوى النسبة – أحياناً – فقد جبلنا منذ الصغر على سماع كلمات الثناء على قوة الرجل وقدراته وإدانه من يستنكر ذلك ولو كان طفلاً، فعندما يقول الطفل «أنا خائف» نستنكر ذلك وبشدة صارخين فيه «كيف تخاف ألست رجلاً ؟!»، وإذا احتاج شىء نقول له: « ابحث – اعمل – ألست رجلاً؟!»، حتى إذا لم يحسن التصرف نرفض تقبل ذلك منه مستنكرين أيضاً بقولنا: « كيف ستكون رجلا وأنت لا تحسن التصرف؟!».

وهكذا فنحن نربى الطفل فى مجتمعنا على أن الرجولة تعنى القوة والذكاء وحسن التصرف..... إلخ من الصفات الحسنة، وفى المقابل عندما نرى الطفلة بنفس المواقف لا ترى بعين ذويها إلا نظرات الشفقة ولا تسمع إلا كلمات العطف وكأن ذلك شىء طبيعى بالنسبة لها، بل إننا أحياناً ندفعها دفعاً للالتصاق بآدم تخليصاً لها لما هى فيه من خوف أو حاجة، سواء كان آدم هذا أباً أو أخاً أو قريباً أو حتى جاراً !!.

وبذلك تنشأ حواء على معتقد راسخ بأن آدم يعنى كل ما هو جميل فهو القوة والأمن والحماية وبيده عصا موسى القادرة على تحقيق المعجزات، وليس لنفسه فحسب بل لحواء أيضاً مما يدفعها رغماً عنها للبحث عنه دوماً لسد حاجاتها وتكملة ما بها من نقص قد يصل لدرجة العجز أحياناً

حتى إنها عندما تجده تبذل كل ما تملك من طاقة ومقدرة للحفاظ عليه، وكيف لا تفعل ذلك وهي تحس أنه سبيلها لمواصلة الحياة؟!، ولا غبار في ذلك إن استمر يقينها بآدم وإحساسها بمدى خطورة ما يمثله لها ولكن الكارثة الحقة إذا لم تجد فيه ما دفعها للبحث عنه والالتصاق به من قوة وشهامة وشجاعة ومقدرة إلى آخر تلك الصفات التي يمكن أن نقول عنها أنها تمثل الحياة بالنسبة لحواء وبدونها تكون الحياة معه موتا لها وإما أن تستسلم واهمة نفسها بأن وأد النساء ما زال أمرًا طبيعيًا وإما ترى جرمًا فتحاول النجاة بنفسها والهروب من قبرها – إن استطاعت - .

زواج الصالونات ... لماذا هو أنجح؟؟

الزواج شركة العمر التى تبدأ بطرفين وتتنامى لتصبح عدة أطراف ولأنها مربح العمر أو خسارته التى لا تعوض كان لزاماً على كل من يفكر فيها البحث عن أهم مقومات نجاحها ودراسة أسباب فشلها وكل منا يشغله ذلك منذ الصغر وللأسف يتوهم الكثير أن الحب أول مقومات النجاح رغم أن الواقع يقرر غير ذلك حيث فشل العديد والعديد من الزيجات التى يكون سببها الحب ونجاح أكثر منها من الزيجات التى يكون أساسها الفكر «زواج الصالونات» فما السر فى ذلك؟؟.

أعتقد أن السر فى ذلك يكمن فى عدة أسباب حيث أن زواج الحب كثيراً ما يكون غير مقنن بل وغير متكافىء أحياناً وفيه يعمى الفرد عن كل ما حوله عدا من يحب – غالباً – فيكون التعاطف والتنازل والتخيل فى أبدع صوره والرضا إلى أن يتم التصادم بالتعايش الحقيقى فيجد الإنسان نفسه مسؤولاً عن بيت وصورة اجتماعية يحدها مختلف الضوابط الدينية والاجتماعية وغيرها فيشعر بالاضطراب لأنه من البداية لم يرى الصورة بكل محتوياتها ولم يضع الإطار الكامل في حساباته إنما هو رأى جزء صغير منها حتى لو كان هو بؤرة الإطار ولم يدرك أن ذلك الإطار يتأثر بكل ركن من أركانه حتى أن أصغر زاوية فيه يمكن أن تكون نقطة اهتزاز والويل كل الويل لمن لا يستطيع حمل البرواز وتحمل كل زواياه التى ما أكثرها بداية من نشأة الطرف الآخر وما اعتقده منذ صغره حتى أصبح جزءًا منه مروراً بعائلته بكل أطرافها وتأثيرها عليه وتجاربه بل والبيئة المحيطة كلها وصولاً إلى تلك الشخصية بكل تفاصيلها النفسية والدينية والاجتماعية وما شغلها من مؤثرات أنتجتها حتى يظهر فى صورة نفسية واجتماعية متزنة وهذا قد يكون عبئاً ثقيلاً جداً على إنسان توهم أن الحب وحده يكفى وبدأ حياته وهو لا يملك من المقومات سواه حتى أنه قد يكون عطل فكره أحياناً عكس من بدأ شركته الزوجية بالبحث عن هدفه بقبول فكرى تام فإنه يكون من البداية رأى الصورة بحيادية حيث تقييمه للطرف الآخر بعين العقل ومدى توافقه معه برؤية إيجابياته وسلبياته بنصابها الحقيقى وبدأ فى تحديد مقومات نجاح تلك الشركة وتوضيح الحقوق والواجبات المفروضة على كل طرف منهما بصراحة حتى تستقيم الحياة ولا يكون ذلك إلا بالتفاهم فى كل النقاط بوضوح بل والتفاوض أحياناً فى نقاط الخلاف

وفي كل هذه الأطوار لا يخلو من القبول النفسي الذى يكون هو نقطة البدء فى هذه الشركة الناجحة وبهذا القبول النفسى المتزن وبالفكر الواضح تبدأ الحياة الزوجية التى تحمل العديد من دعائم الاستقرار حيث معرفة كل طرف لما له وما عليه وإدراكه لعاقبة الإخلال بأى من الالتزامات ورغبته فى النجاح وإثبات الذات وإظهار شركته فى أبدع صورة لنفسه أولاً مثبتاً لها حسن اختياره ودقة تفكيره وصحيح أسلوبه وللطرف الآخر ثانياً مثبتاً له مدى وفائه بما اتفقا عليه وقدرته على حمل دعائم الشركة والوصول بها إلى بر الأمان وللمجتمع ثالثاً مثبتاً له حسن تخطيطه وبين الفكر الناضج الذى استمع لكل طرف من حوله بدقة كما استمع لنفسه وحلل كل الآراء بل واستفاد منها بحيادية حيث انعدام عصبية الحب وبين العمل الصادق تنمو بذور النجاح التى تثمر أروع الثمار فتصدق الحكمة القائلة:« الزواج كثير من الاحترام قليل من الرومانسية شىء من الحب».



أمومة وجحيم

- كثيراً ما نجد زيجات كان أساس القبول فيها الأمهات، ونتعجب عندما تفشل ويقال بسبب أمه...

- استوقفتنى كثيراً هذه الصورة خاصة بين الطبقات الريفية بعض الشيء حيث نرى الإطار الخارجى أم مضحية من أجل أبنائها، وأبناء مرتبطون بأمهم يحترمونها لدرجة الإجلال، يحبونها كثيراً فنسعد بذلك الإطار قائلين: من فيه خير لأمه ، ولا شك فيه خير لأهل بيته لأن إجلاله لأمه دليل عمق تربية ورقى، وتتم الزيجة والزوجة وأهلها متوسمين خيراً بأن ما ينطبق على الأم من حب وحنان وارتباط واحترام ولا شك سيماثله على الزوجة حتى ولو كان أقل في النسبة ولكن سرعان ما يتبدد ذلك عندما تفاجئ الزوجة بأن ارتباط الأم بأبنائها لم يكن حباً طبيعياً بقدر ما كان ملجأ من سوء تعامل الزوج فتفرغ الزوجة كل شحنتها العاطفية فى أبنائها فقط، وتستجير من خوفها من زوجها بمحاولة وجود الأمان عند أبنائها، وطبيعى أن من يحيا طفولة بين أب قاس يهين الزوجة ولا يرحمها، يتوجه دون أن يدرى بعاطفته هو الآخر لأمه ولأمه فقط، فيكبر وبقلبه رغبة شديدة لتعويضها عما قاست وبعقله فكرة أن الأم يجب أن تتحمل كل ما تقاسى من أجل أبنائها وعلى الصعيد الآخر ورغماً عنه يتشرب سوء طباع الأب – رغم رفضه لها- ويكبر وتكبر بداخله المتناقضات ويكبر مع أمه الارتباط الأعمى به فلا تستطيع أن تفرق بين دوره معها كابن ودوره كزوج وأب مسؤول، فتحاول أن تصنع من زوجته جارية فهى بالنسبة لها ما هى إلا أداة لإسعاد ابنها البار الحنون المطيع، وهى لا تدرك أن تلك الصفات خاصة به كابن وليس بالضرورة أن تنسحب عليه كزوج ولا تحتمل فكرة ابن بار ولكنه زوج ظالم أبداً، وحتى إذا نجح من أمامها فى إقناعها ببعض أخطاء ابنها مهما كانت فداحتها تراها قشور هشة ليس لظلم فيها، ولكن لكونها تقيسها على ما عاشت هى عليه من ظلم ، فحتى لو كان الابن شيطاناً فهو ملاك بالنسبة لأبيه ومستحيل أن تدرك أن ذلك ملاك من وجهة نظرها فقط، فتبدأ بالدفاع عنه، وكيف لا وهو مكسب عمرها الوحيد فهى لم تشعر يوماً لا بذاتها ولا بزوجها ولا بمملكتها بل كل ما شعرت به من حب وحنان كان هذا الابن، فهو الوحيد الذى أشعرها بوجودها، فهى فى دفاعها عنه إنما هى فى حقيقة الأمر تدافع عن وجودها ولا عجب فى أن يدافع الإنسان عن ذاته ولو كان بالباطل

وكل هذا لا ضمير فيه إذا كان الابن مدرك لمأساة أمه ووضعها في نصابها الحقيقى وحاول الخروج من هذه الشرنقة مطلاً على عالم آخر فيه ما فيه من العلاقات الإنسانية السوية، فيه ما فيه من إدراك كل طرف لما له وما عليه، فيه ما فيه من التدين والرقى فينأى بنفسه وببيته عن هذه المنظومة الفاشلة، ولكن الكارثة الحقيقية عندما يسلم الابن علمه لجهل أمه فيتشبع بضيق الأفق ويصدق نظرة أمه فيه وأنه ملاك، فلا يحاسب نفسه ولا يحاول تقويمها فيجعل الجميع يتجنبه ويتعامل معه على أنه حالة مرضية حتى ولو لم يكن له ذنب فيها فيغلق عليه مجتمعه ويتحاشاه الآخرون وتعاد الجولة من بدايتها وكأنه أمه وأبيه وإخوته ويعيش نفس الصراعات المريرة ويكبر وتكبر معه الأنانية وحب الذات وتفضيلها ونفوره من المجتمع ورفض المجتمع له والأكبر من ذلك يكبر معه رفض أبنائه له إلى أن يكبر فيكتشف فداحة أخطائه وبأنه كان صورة من أبيه دون أن يشعر ، وحول زوجته المسكينة في عواطفها إلى صورة من أمه دون أن يشعر أيضاً وجعل التفاف أطفاله حول أمهم نفوراً منه فلا هو استمتع بعلاقة زوجية سوية، ولا تواءم اجتماعى سليم ولا حب واحترام أبناء بررة، فخسر دنياه وآخرته لا لشيء سوى أنه اعتنق ما اعتنقته أمه من مفاهيم ومبادئ خاطئة فرضتها عليها ظروف قاسية كان عليه هو أن يحللها قبل أن يعتنقها كمن نشأ فى أحضان الوثنية فاعتنقها ديناً دون أدنى تفكير فى صحتها.



كينونة الحب بين الأرض والسماء

«الحب» تلك الكلمة الساحرة التى بمجرد وقوعها علي الآذان يتبعها فيض من المشاعر والأفكار التي تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والتجارب، هل لها وجود حقيقى بين البشر؟؟؟!!

إذا استقرأنا تاريخ المشاعر الإنسانية بداية بالعصر الحجرى حيث إنسان الكهف البدائى ومروراً بمختلف العصور حتى عصر الذرة لوجدنا أن هناك ثوابت لا خلاف عليها تؤكد وجود ذلك الكيان الذى لا سلطان عليه – الحب – فهناك العديد والعديد من الفرسان الذين أسرهم الحب والملوك الذين استعبدهم دون منطق وروائع أدبية، لولاه لما كانت وليس أدل على قوته من أنه دوماً نقطة تحول فى حياة من يقتحمهم وعليه يتحدد مسارهم أياً كانوا ورغم كل هذه الحقائق لم يجرؤ بشر أن يقدم تعريفاً جامعاً مانعاً له وإن دل ذلك على شيء إنما يدل على أن سره فوق علم البشر مثله مثل الروح التى أراحنا الله سبحانه وتعالى من محاولة البحث فى ماهيتها حين قال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ، ولذا وجدتنى أترك كل المجلدات البشرية الأدبية واللغوية والفلسفية منها ليقيني أنها لم ولن تصل للحقيقة المحضة سابحة فى عالم الروحانيات ذو الأمواج العاتية متوسلة لخالق البشر عله يلهمنى الشراع الذى استدل به فإذا بى أشعر وكأن رحمة الله تغمدتنى وصوت بداخلى يردد قوله عز من قائل على لسان حبيبه المصطفى ﷺ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، فشعرت أننى وجدت المرفأ ولا شك فلا مجال للجدال على وجودها بعد ورودها صريحة فى القرآن ولا أدل على قوتها من كونها الرابط بين الله وعباده وبين العباد وسيد العباد ﷺ وإذا كان الله – جل شأنه – ألهم نبيه كل وسيلة تقربه من عباده سواء كان ذلك بالقول أو العمل وأمر نبيه ﷺ بالجهاد فى ذلك سنين طويلة اهتدى فيها من اهتدى وضل فيها من ضل فإنه جعل قمة التسليم فى النهاية مرتبطة بالحب حيث فسر ذلك لنبيه ﷺ وعباده بقوله – عز من قائل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾، وفى ذلك دليل على أن لين قلب حبيبه ورقته هما من أسباب تجمع البشر حوله وهنا تكمن إشارة واضحة بأن هداية البشرية كان طريقها الحب وفى ذلك تأكيد لوجوده، أما عن حجم ذلك الوجود وأثره فيكفى أمر النبيإن كنتم تحبون الله فاتبعونى» وهو ﷺ متيقن بالطاعة منا

وفي ذلك تصريح بأن المحب الصادق يطيع ويتبع ليس حبيبه فقط وإنما حتى حبيب حبيبه بدليل أن من أحب الله اتبع حبيب الله – النبي - والتزم بكل أوامره شاعراً أن حريته في ذلك القيد وكأنه سجن بحجم الفضاء فكانت تلك البداية حيث المحبة المحضة والحب الأعظم بين الله ورسوله وبين الرب وعباده وبين الخلق وسيدهم فكانت الهداية والشفافية والنقاء ولأن النقصان ناموس الحياة البشرية ظل العبد ينزل وينزل درجات ودرجات فتدرج من حب الخالق لسيد الخلق للمخلوق وبين المخلوق والمخلوق أظلمت الإشراقات الروحانية بل وتعدتها إلى أن دنست أحياناً بالأخطاء البشرية فتارة نجد المحب بقلب الشعراء وعقل يدرك ما بين الأرض والسماء ويد تتجه دوماً للخير والنماء فنشعر بأن الحب يمكن أن يكون بديلاً حتى عن الهواء وتارة نجد متوهم أو مدعي الحب يسير بدرب ترفضه الأرض والسماء وكأنها تجربة قابلة للانتهاء، فلحظة يحرص عليها وكأنها بالنسبة له الخبز والماء وأخرى يزدريها إذا ظن انه وجد شواء وفي ذلك ما فيه من تحول من أرقى درجات الإنسانية إلى الشهوة الحيوانية ووسائل الاقتناص المتعددة بالغابة وهنا يختلط الأمر على الجاهل حتى يصل إلى مرتبة الشك ويتساءل عن كينونة الحب وأثره ولو أدرك الحقيقة لتيقن من وجوده وأنه السبيل الوحيد للسعادة والنجاة فلو أحب الإنسان ربه لأحسن عبادته ولو أحب الكون لأحسن التعامل معه ولو أحب غيره لأسعده ولو أحب نفسه لبحث دوماً لها عن سبل النجاة، فالحب قانون حياة لمن يعى.



حقد المحبة

هل يمكن للمحب أن يتضايق ممن يحب بل ويصل الضيق إلى درجة الحقد، أو التفكير فى الانتقام أحياناً؟!!

فى البداية وجدتنى أرفض تلك الفكرة تماماً فالمحب يتمنى لمحبوبه دائماً كل الخير والسعادة، وكيف لمشاعر الحب أن تولد كراهية أو حقد، فشتان ما بين الاثنين ولكنى عندما أخذت أنظر إليها بمنظار الحقيقة القائمة وجدتها ليست مجرد فكرة إنما هى حقيقة كائنة بل وبنسبة كبيرة جداً، ترى ما السر فى ذلك؟

أحس أن هذه الحالة بين المحبين لا تكون إلا عندما تثقل كفة العطاء بشدة في طرف بينما تخلو في الطرف الآخر من أى شيء، وهنا تكون الكارثة، وللأسف ربما لا يمكن تداركها حتى بعد إدراك أسبابها حيث أنها تنفجر لحظة تعب من تعود على العطاء من كثرة عطائه، وعجز من تعود على الأخذ عن العطاء، وأحياناً نرى أحد الطرفين يدفعه الحب لعطاء كل ما يملك مادياً كان أو معنوياً متوهماً أنه ومن يحب شيء واحد، أى أنه يعطى من نفسه لنفسه وكأنه يختزن ما لديه لوقت الحاجة، وفى المقابل يدمن الطرف الآخر الأخذ مبرراً ذلك أيضاً بأنهما واحد والحياة كى تسير لابد وأن يكون هناك أخذ وعطاء، وما دام هناك طرف يعطي فلا مانع أن يكون هو الطرف الذى يأخذ متجاهلاً حكمة تبادل الأدوار، ويستمر الحال للحظة أن يبدأ شعور الطرف المعطى بالتعب من كثرة عطائه وحنينه للأخذ ولو على سبيل التجربة، وهنا تحل الكارثة حيث يجد الطرف الآخر عاجزاً عن العطاء، وكيف لمن تعود على الأخذ دائماً أن يعطى؟.



من العاقل ؟!

من البديهي أننا عندما نتساءل عن العاقل نجيب بأن العاقل هو الذى يدرك كل شيء ويزن الأمور بموازينها الصحيحة واضعاً كل شيء فى مكانه مقدراً لأسبابه وعواقبه حاسباً كل تصرفاته وكلماته بل حتى نظراته لا يخطو خطوة واحدة قبل أن يقيسها مقدراً ما بها من عثرات وما لها من نتائج ناظراً لنفسه وغيره في آن واحد يخشى الفشل يخشى الندم يخشى نفسه وغيره لا يسير إلا ونصب عينيه هدف يستحق السير من أجله وفى سبيل تحقيق كل ذلك نجده غالباً يخشى كل شيء وقد يصل إلى حد أنه لا يفعل أى شيء بدعوى التعقل الكاذب فلأنه يخشى الموج لا ينزل البحر معللاً ذلك بأنه يستمتع بالنظر أكثر واهماً نفسه بأن من يقف على الشط يستمتع بالنظر والتأمل في البحر وكل من فيه، أما من يصارع الموج فلا يستمتع إلا بالسباحة فقط وحسبه أنه يمكن أن يغرق أما من على الشط فحسبه أنه آمن ونستطيع أن نقيس على ذلك كل شيء فى الحياة، فالحياة ما هى إلا بحر وتقلباتها أمواج ومن يخشى شيء يخشى كل شيء فالخوف درجات إذا صعد الإنسان بعض منها كان لزاماً عليه أن يكملها لأن الوقوف بوسط السلم لا يجوز فالذى يخشى السهر يخشى السير ليلاً يخشى السفر يخشى تغيير المواعيد يخشى الحركة الغير مقننة يخشى دخول الميادين الجديدة بل يخشى حتى مجرد التفكير فيها أو النظر إليها يخشى التقلبات يخشى الثورات يخشى غيره يخشى حتى نفسه، ويظل يتدرج ويتدرج فى ذلك حتى يخشى الحياة نفسها واهماً نفسه بأن الله – سبحانه وتعالى – وضعه على درجة آمنة من سلم الحياة ومن الحكمة أن يرضى بها والسعادة فى الرضا وأنه إذا حاول تغيير تلك الدرجة فربما لا يجد غيرها وبذلك تزول النعمة ولا يجدى الندم وفى كل ذلك لا يدرك أن الخشية من الحياة إنما هى الموت بعينه وأنه بخوفه من كل شيء يميت نفسه شيئاً فشيئاً إلى أن تنتهى حياته فتقف ثابتة لأن الحركة سمة الحياة وما كان للميت أن يتحرك ورغم ذلك يتشدق بنجاحه فى القدرة على الثبات والحفاظ على ما فى يديه..... ينظر إليه العديد والعديد على أنه حكيم فعلاً!!!.

وفى ذلك ما فيه من الحماقة والسفه فالعاقل حقاً هو الذى يجرب ثم يختار، يتأمل حيناً ويسير أحياناً فالاستكشاف متعة والتعثر متعة والتجريب متعة فإذا كان فى الوقوف على الشط متعة النظر والتأمل ففى داخل البحر متعة النظر والتأمل والتحرك والتفكير وسرعة التصرف والإحساس بالذات وفى كل ذلك إعمال للعقل وصقل للقدرات وتقييم للذات التى تقدر بمدى قدرتها على الجمع بين أكبر عدد ممكن من المهارات فلولا إرهاق الحركة لما كان الاستمتاع بالسكون ولولا ألم التعثر لما أحسسنا بعظمة النهوض ولولا الفكر والتجريب لما كان الاستكشاف وفى كل هذه الأطوار لا يخلو الإنسان من العقل الذى يوازن فى كل شىء ويتحكم ولكن بنسبة فتغير النسب نفسه متعة كالذى يضيف الحلو إلى المر ويظل يزيد فى النسبة إلى أن يرضى عنها وهنا يسعد بالمذاق الحلو الذى يريده ويسعد بقدرته التى فكرت ونفذت حتى استطاعت أن تحيل المر إلى حلو فمن العقل أن يفكر ويجرب الإنسان دوماً حتى الجنون فليس هناك أحكم ولا أمتع من جنون العقل ما دام يحده عقيدة ثابتة – إيمان – وخلق لا يقبل المساومة أو التجريب فهذان هما الثوابت العقلية التى يكن المساس بها جنون حقاً.



التفاؤل والتشاؤم

هل هما غريزة طبيعية أم مكتسبة؟

هما بلا شك من الغرائز المكتسبة بدليل اختلافها فى الأفراد وجوداً أو نسبة، ولكن ترى ما الدوافع التى تجعل هذا الشخص متفائلاً راضياً وغيره غاضباً متشائماً؟ وهل هى أشياء فردية أم اجتماعية أم مركبة؟ وهل نسبتها ثابتة أم متغيرة بتغير الزمان والمكان وغيره من الأشياء؟

وجدتنى أنظر إلى هذه الأسئلة وغيرها محاولة فلسفة كل منها سريعاً، إلا أنى وقفت طويلاً أمام ملاحظة دقيقة وهى أننا قد نجد شخصين وربما توأمين فى أسرة واحدة ومجتمع واحد نرى هذا راضياً متفائلاً جداً والآخر على النقيض- فما السر فى ذلك؟

أحس أن السر فى ذلك يكمن فى رؤية الشخص نفسه للأشياء، ومدى إحساسه بها بل وبنفسه أيضاً؛ فكلما قل إحساس الإنسان بالقبح والسلبية كلما زاد تفاؤله، وكلما زادت دقته ودرجة الإحساس عنده كلما زاد تشاؤمه، بدليل أن الإنسان الذى يرى التناقض طبيعة لابد من تقبلها والسلبية أمر طبيعى فى الأشياء والأشخاص ولا مفر منه، والجمال لا يمكن أن يخلو من قبح أبداً، والحياة به أو بدونه سائرة سائرة بل وبسرعة محددة، ومن هنا لا داعى للتصارع معها، وغيره من الأشياء التى هى فى جوهرها تبلد، وفى مظهرها حكمة.

ترى مثل هذا الشخص ما الذى يجعله متشائماً غاضباً؟ وكيف يحس بذلك إذا كان مجبولاً على تقبل كل شىء ومسايرته كما هو؟، فما الذى سيخيفه؟، إن مثل هذا لابد أن يكون متفائلاً راضياً لأنه فى الحضيض أصلاً وليس بعد القاع شىء يخشى الوصول إليه، فمثل هذا أخذ لنفسه مكان فى السفح واستقر فيه مفلسفاً ذلك بأنه يسعد برؤية من فى السفح والقمة، وأن من فى القمة إذا اهتز فلابد أنه ميت ولا محالة عند وصوله إلى القاع، أما هو فمهما اهتز أو حتى تحرك فلن يصيبه أى شىء فهو فى مأمن، وتأمين النفس ذكاء، عكس الغبى – فى رأيه- الذى يحاول الوصول إلى القمة والتمركز فيها متجاهلاً مدى صعوبة الوصول إليها وخطورة محاولة التمركز فيها، وهو لا يدرى أن مجرد التفكير فى القمة سعادة وإحساس بالذات والوصول إليها نجاح وعدم الوصول لا يخلو من شرف المحاولة، وأن مثل هذا الإنسان لا يمكن أن يتسم بالتفاؤل والرضا الدائم؛

لأنه يرى الأشياء على حقيقتها ونسبها المتغيرة، وبالتالى تتغير نظرته ما بين الرضا والغضب، وينعكس ذلك على نفسه تفاؤلاً وتشاؤماً، فهو يرى الجمال والنجاح بنسبه الحقيقية فيتفاءل بقدرها وهذا قدر ضئيل، ويرى القبح والسوء فيتشاءم بقدره مما يجعله يتشاءم كثيراً ولا شك، ولكنه بين هذين الطورين لا يخلو من إحساسه بإنسانيته وحسبه ذلك.

ما المسؤولية؟؟

العمل مسؤولية، الزواج مسؤولية، النجاح مسؤولية، الحياة مسؤولية، فما المسؤولية هذه التى تتوقف عليها حياة الأفراد والجماعات بل الشعوب بأسرها؟، حتى أننا نعتقد أنه لو كان كل إنسان مسؤول لما رأينا خللاً في الحياة الخاصة أو العامة، وهل كل فرد يعى معنى المسؤولية حقاً؟ وهل هى مفهوم مجرد متفق عليه بين الناس جميعاً؟.

لا أعتقد ذلك بدليل أننا نقول هذا إنسان مسؤول وهذا غير مسؤول، فما الذى يفرق بين هذا وذاك؟ وما الذى يدفعنا لتلك النظرة وذاك الحكم؟ وما الذى يجعل هذا الإنسان يتصف بتلك الصفة والثانى لا يتحلى بها والثالث يأخذ منها بطرف وربما أطراف؟.

أعتقد أن السبب فى ذلك هو مدى إدراكنا لمعنى المسؤولية، فهناك إنسان يحس أنه مسؤول أمام نفسه فقط فيسعى لإرضائها فحسب، ويريد لها كل ما تتمناه فتكون هى محوره ونقطة بدايته ونهايتها فى كل شىء، فلا ينظر إلا لها حيث أنه يظن أنه ليس من حق أحد أن يحاسبه إلا هى، مما يجعلنا نشعر أنه إنسان أناني، وكيف لا يكون كذلك وهو يعيش لنفسه ومن أجلها وحسبه أنه يحقق مسؤوليته الشخصية فقط مما يدفعه إلي عدم مراعاة كل من حوله ولا يبالي حتى بافتقادهم، وكيف يهتم بذلك وهو لا يشعر بأي مسؤولية تجاههم فهذا علته ليست فى عدم الإحساس بالمسؤولية وإنما فى مداها، فهو مسؤول عن نفسه أمام نفسه وحسبه ذلك.

وهناك من يشعر أنه مسؤول عن مجتمعه الصغيرأى أسرته، ولذا يحاول جاهداًالقيام بكل ما ينوط به من أعباء أسرية على اختلاف المواقع والأوقات، فإذا كان زوجاً مثلاً اتسم بالنشاط وحب العمل حتى يستطيع أن يفي بمسؤولياته المادية، وإذا تعمق المفهوم لديه نراه يحاول جاهداً حمل الأعباء النفسية أيضاً، حتى يصبح رباناً ناجحاً مما يدفعه إلي التحلى بأنبل الصفات، ومرد ذلك كله أنه يشعر أنه مسؤول عن هذه الزوجة أمامها وأمام نفسه ومن أجل مسؤوليته أمامها يحاول أن يفى بكل متطلباتها، ومن أجل مسؤوليته أمام نفسه يفعل كل ما يستطيع أيضاً لترضى نفسه عن نفسه، ويظل هكذا فى كل أدوار حياته فيسعد نفسه وأسرته حتى أنه في غمرة ذلك لا يستطيع أن يوسع دائرة مسؤولياته الاجتماعية، وهذا ما يجعل المجتمع ينظر إليه على أنه «رجل بيت فقط» وهذا علته أقل حدة من سابقه، حيث أنه مسؤول عن نفسه وعن مجتمعه الصغير، ولو فعل كل منا ذلك لسعد المجتمع كأسر ومثل هذا لا يسبب ثغراً ولا يسد خللاً لغيره أيضاً.

أما النمط الأجمل فهو ذلك الإنسان الذى تتعمق فيه دائرة المسؤولية لتشمل نفسه وأسرته ومجتمعه ووطنه بل وأمته أحياناً، وهذا يندر وجوده ولكنه إن وجد يكون كالجوهرة الثمينة فى محل زجاج لا يكتشفها إلا من كان على دراية تامة بالمعادن الثمينة، وقد يصعب اكتشاف ذلك النوع لسببين: **أولهما**: أنه فى خضم واسع تسيطر عليه الصورة الغير مسؤولة، **وثانيهما**: أن مثله لا يفصح عن نفسه فإحساسه بالمسؤولية الحقة وحمل تبعاتها لا يعطيه مجالاً لتعريف نفسه، فمثل هذا يحمل أعظم الصفات، ففى سبيل إحساسه بمسؤولياته أمام نفسه يعمل جاهداً على تحلية نفسه بأجمل الصفات ليرضى نفسه أمام نفسه، وفى ظل إحساسه بمسؤولياته عمن حوله يعمل جاهداً أيضاً على حمل أعبائهم وإسعادهم بكل ما فى وسعه، ومن أجل إحساسه بمجتمعه ووطنه يحمل نفسه أكثر مما تتحمل، فحتى لو لم يستطع تقديم شىء فلا يستطيع نزع عبء التفكير فيه عن كاهله ولا يستهان بذلك، فهذا هو الإنسان الراقى حقاً.



ما الرقى؟

كثيراً ما يحلم الإنسان بالرقي في نفسه، فى أسرته، فى مجتمعه، وقد يكون ذلك الحلم بهدف ما، وقد يكون هو نفسه الهدف، ومع كونه هدف سامى إلا أننى لم أستطع الوصول إلى حقيقته، وعندما وجدتني أكرر همساً وصراخاً، أحلم أن أعيش فى مجتمع راقى، ووجدت من حولي تختلف نظراتهم عند سماع ذلك بين مقدر ومستهزىء لهذا المطلب الملح فى نفسي، أدركت أن المفهوم مختلف عليه بدليل اختلاف ردود الأفعال والتى قد تصل إلى السؤال حيناً والإستنكار أحياناً؛ لأن ذلك المطلب فى نظر الكثير لا يساوى شيئاً ولكن بداخلي يساوى الكثير من الأشياء بل يفوق كل شىء، فالرقى علو فى الذات والتصرفات، فالإنسان الراقى يرقى بنفسه عن كل الصغائر وبذلك يمتلك نفساً ملؤها العزة والكبرياء وليس ذلك فحسب بل يرقي بنفسه عن أن تصغر من حوله، فيرى كل من حوله كبيراً فيشعر بالتكافؤ بينه وبين الآخرين مما يولد انسجاماً ولا شك.

ولكن ترى ما الروافد التى نستلهم منها ذلك الرقى؟ هل هى البيئة؟ إن لها ولا شك أثر كبير فهى التى تشكل بوابات الإنسان وتعطيه المفاهيم البسيطة والمركبة، ولكنها ليست المنبع الوحيد لذلك لأننا كثيراً ما نجد من يشذ عن بيئته سواء كان ذلك بالسلب أو الإيجاب – هل هى الفطرة؟ لا نستطيع أن نقول ذلك أيضاً لأننا كثيراً ما نرى أناسًا على نفس الملة والمنهج والعقيدة، ولكن بينهم تباعد تام فى مدى الرقى.

إنها ليست إلا ميل نفسى يختلف باختلاف الشخص نفسه ومدى تفهمه للمفاهيم التى يعتنقها ويتواءم معها بدليل أننا نجد أناساً يرون المستوي المادى رقي، وآخرون يسخرون من ذلك، وغيرهم يرون الواجهة الاجتماعية الكبيرة رقى، وفى المقابل مَنْ يضحك من بلاهتهم، وأناساً يرون التعمق في الدين وتطبيقه رقى، وهناك أيضاً من يستنكر ذلك ولكن الشىء الذى لا يستطيع أحد استنكاره أو حتى التشكيك فيه هو إحساس الإنسان برقى نفسه ومقدرته على أن يجعلها هى المنبع والمصب لذلك الإحساس كلما حن إليه.



ما الكرم؟

الكثير منا يخطئ عندما يظن العطاء أو كثرة الإنفاق كرماً؛ فالكرم شيمة نفسية أكثر منه ملامح مادية بدليل أننا كثيراً ما نجد إنساناً كثير الإنفاق، ورغم ذلك نصفه بالبخل، فترى ما العلاقة بين الإنفاق والكرم؟.

أحس أن العلاقة بينهما أشبه بالخيط الرفيع جداً حتي أنه لا يكاد يراه إلا حاد البصر؛ فالإنسان يمكن أن يجبر على كثرة الإنفاق بحكم العادات أو الضغوط الحياتية المفروضة، كأن يولد فى مجتمع يستلزم منه كثرة الإنفاق أو تحكم عليه الظروف بإعالة من يفترض أنه عائلهم أو يوضع في مكان ضريبة الاستمرارية فيه الإنفاق عليه أو غيره من الأشياء التى ينفق فيها مجبراً وليس مخيراً، وأحياناً يرغم على الإنفاق لحد الإسراف رغماً عن أنفه، فترى هل مثل هذا يكون كريماً؟؟!!

الفيصل هنا نقطة واحدة هى مدى حبه لهذا الإنفاق وتفاعله معه، فإن كان ينفق بحب ورضا موحياً لنفسه بأنه هو الذى يريد ذلك فنعم الإنسان هو، وإن كان ينفق بتضرر ورغبة ملحة فى أن يلهمه الله يوماً الوسيلة التى تخفف عنه فهو بخيل، مهما بلغت درجة إنفاقه، فالكرم ليس فى العطاء ذاته وإنما فى حب العطاء وليس فى الإنفاق للضرورة وإنما فى الرغبة في الإنفاق وليس فى العطاء رداً للأخذ أو انتظاراً له، وإنما فى عشقه ذلك العطاء، أى أنه عطاء للعطاء فمن يعطي دون انتظار المقابل، ومن ينفق حباً فى الإنفاق إنما هو الكريم حقاً.



زمن الفرسان

ولى زمن الفرسان ولا محالة، ولا ندرى السبب فرغم بكاءنا عليه وتمنى عودة حتى أطلاله، إلا أننا لا ندرك السبب فى اندثاره، وهل كان حتمية قدرية أم عواصف بشرية عصفت به لنظل نبكى عليه مدى الحياة، فمن عاشه يحس بلوعة الفقد، ومن لم يعشه يحس بمرارة الحرمان، فترى ما عماد ذلك الزمن وما حدوده التى أغلقت أمامنا؟ وهل يمكن اختراقها والعودة ولو بروائح منه؟، وحتى لو توهمنا عودتها هل سنحسها بين كل هذه الروائح المستحدثة الكريهة؟!!

أحس أن عماد ذلك الزمن كان الرجل؛ لأنه هو الفارس الحقيقي، ولأن الرجولة كانت السمة الغالبة أسميناه زمن الفرسان، ففى ذلك الزمن تحددت الأدوار ولا مجال لخلطها، ولا حتى التنحى ولو عن جزء منها فاتضحت معالم الحياة؛ حيث الفارس الذى يمتطى جواده مقتحماً به خيمة النساء معرباً عن رغبته فيمن يشاء دون ضغط أو قهر، فإن ارتضت حملها معه فوق جواده ذاهباً بها حيث هو، فمن أول لحظة يحملها هو خلفه وفي ذلك ما فيه من عمق المعانى؛ حيث يشعر بمسؤوليته الجمة التى تلزمه بالكفالة المادية والمعنوية تجاهها، فيثقل ذلك رجولته وتشعر هى بقوامته، وذلك ذروة التقدم والإيمان فى نفس الوقت، وهنا يكمن سر الجمال فعندما تشعر المرأة أن أمنها بل ووجودها معتمداً على ذلك القوام ستبذل قصارى جهدها فى الحفاظ عليه، وفي ذلك ما فيه من الأحاسيس الرائعة للاثنين، فليس أمتع للرجل من أن تشعره امرأته بذاته وبأنه البحر والسفينة والمرفأ بل والحياة بالنسبة لها فيشعر بذاته من خلالها ، وأنه يملك أمره وأمر من يقود وهنا قمة القوة التى هى رأس الرجولة، وفي نفس الوقت تشعر هى أنها محور حياته الذى من أجله يصارع كل شىء فتشعر بأهميتها، وحسبها أنها تحس أن رجولته مسخرة من أجل أنوثتها فتحرص عليها؛ لتنعم بها وهنا قمة الاندماج حيث يشعر كل منهما أنه لا معنى لوجوده بدون الآخر، فإذا كنت أنا الحامي فلا معنى لذلك فى ظل غياب من احميه، وإذا كنت أنا المحمية فلا بقاء لي دون حامى، وإذا كنت أنا مصدر الجمال الذى يسعى الكون إليه فسأذهب إلى مهب الريح إذا لم أجد من يحيطنى بل ويحدنى من جميع الأركان.

لذا كان يشعر كل منهما بنفسه وبالآخر وكأن كل شيء واحد ولا مجال لفصله، وفي التوحد قوة وجمال وعليهما تقوم الفروسية الحقة، بدليل أننا عندما تخلينا عن تلك السمات فقدناها، فنحن نعيش عصر اضطراب الأدوار حيث المرأة المسترجلة، والرجل المستأنث – بعض الشيء- فهي في بيتها تقوم بأعمال الأنثى المادية، وفي مجتمعها تقوم بكثير من أعمال الرجل المادية أيضاً، وبين المادية في الداخل والخارج ماتت الأنوثة التي هي معنى قبل أي شيء؛ حيث لم تعد تشعر هي بها وبالتالي لم يعد يراها آدم، وفي نفس الوقت يساير آدم المجتمع بمنكب يجاور مناكب كثير من بنات حواء، حتى أنه ربما يفقد الشعور بذلك مع طول الزمن مما ينعكس عليه في بيته الذي هو جزء من ذلك المجتمع الذي أدمنه، فيفقد احساسه بالمسئولية الجمة حتى أنه لم يعد يكتفي في كثير من الأحيان بإلقاء نصفها على حواء بل يلقيها كاملة، فتفقد هي الإحساس بالقوامة تماماً فيدخلا في معادلة قد تفضي بهما إلى هراء يسمى (المساواة) التي هي في جوهرها ظلم وخلط لا معنى له إنما المساواة الحقة والعدل كان حيث التكامل حيث كانت لها إدارة الأسرة في الداخل كاملة، وكانت له الأدوار الخارجية كاملة وتحت مظلة التوحد يسمح كل منهما للآخر بإبداء الرأي في دوره بل ومناقشته بحب وتفاهم، وكان يتم ذلك بهمس حيناً وبنظرات وإيماءات أحياناً، فكانت الحياة الهادئة التي قتلها صخب وصراخ المغالطة في الأدوار لنظل نلهث وراء سراب زائف حتى نتيقن من أنه سراب، ونقف لنلعنه وننعى الزمن الجميل الذي اغتلناه بجهلنا وتخلفنا مدعين العلم والتقدم.



فهرس الكتاب